الفصل الثاني

بدايات وقف الكتب وظهور المكتبات العامة

وقف الكتب: تاريخه وتطوره:

يرى عبد الله الجبوري أن حب المسلمين للعلم وأهله وحث الإسلام على التعلم كان وراء استثناء الفقهاء لجواز.

> وقف المنقول الذي جرى بوقفه كالكتب من الأصل العام في الوقف، وهو أن يكون الوقف مؤبداً فلا يصح إلا في العقار لا في المنقول، وجعلوه من باب الاستحسان، وسنده المعروف، ومن هنا نشأ وقف الكتب، وطفق المسلمون، وأهل الخير والإحسان يوقفون الكتب نفعاً للناس، وحباً لعمل الخير[1].

ولا نجد تاريخاً مؤكداً يحدد لنا بداية الاتجاه نحو هذا النمط من الوقف، ومع ذلك فقد نتلمس هذه البدايات في مكتبة عبد الحكم الجمحي التي أنشأها في مكة المكرمة في القرن الهجري الأول، والتي لا نجد عنها غير الخبر التالي :

> أخبرني الحرمي، قال حدثنا الزبير، قال حدثني عبد الرحمن عن عبد الله بن عمرو الجمحي قال كان عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان الجمحي قد اتخذ بيتاً فجعل فيه شطرنجات ونردات وقرقات ودفاتر فيها من كل علم، وجعل في الجدار أوتاداً فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ثم جر دفتراً فقرأه أو بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم[2].

وليس في الخبر ما يشير إلى وقف أو خلافه، غير أن الإشارة إلى اتخاذ بيت ووضع كتب فيه، إلى جانب بعض وسائل التسلية يوحى بأن القصد كان إفادة الناس عامة وإتاحة الفرصة لهم للاطلاع داخل البيت، وهو ما يوحى بأن عبد

الحكم كانت تخامره فكرة الوقف وإن لم ينفذها بالطريقة التي انتشرت في القرن الرابع الهجري.

ورغم أن المصادر القديمة تتحدث عن مكتبات خاصة، وعن أفراد جمعوا كتباً إلا أنها لم تذكر ما يفيد بلجوء أي فرد منهم إلى وقفها بعد وفاته، وذلك في القرون الثلاثة الأولى ويبدو أن الأسباب تعود إلى قلة المصنفات وتحرج البعض من استخدام الكتب وتحبيذ النقل شفاهاً والأخذ عن العلماء مباشرة عن طريق الرواية دون الاستعانة بوسيلة مكتوبة.

وتبرز لنا في القرن الثاني الهجري، مؤسسة علمية هي بيت الحكمة التي كان من بين أقسامها مكتبة حظيت بعناية مجموعة من خلفاء بني العباس، وإن كان المأمون أكثرهم اهتماماً بها ورعاية لها ودعماً لتنمية مجموعاتها، وذلك عن طريق إيفاد مبعوثين إلى بلاد الروم لجلب الكتب الفلسفية وغيرها، وإضافة إلى الاهتمام بالمصنفات العربية لكبار العلماء من مختلف مناطق الخلافة العباسية. ولكن لا نستطيع بحال من الأحوال إدخال مثل هذه المكتبة ضمن المكتبات الوقفية لافتقارنا إلى السند العلمي الصريح في هذا الصدد، وإن كان الهدف من وراء إنشائها كان مساعدة العلماء والباحثين بتوفير أكبر قدر من مصادر المعلومات لهم «لتسهيل سبل الدرس والمطالعة والتأليف والترجمة لمن يرغب في ذلك، فقد كان يتعذر على الناس أن يقفوا على الكتب العلمية النادرة والتي ترجمت من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية... فذلل الخلفاء للناس سبل المطالعة والدرس في بيت الحكمة الذي أنشيء لنشر العلوم والمعارف المنقولة عن الأمم الأخرى...»[٣] وهذا الهدف يقترب دون شك من هدف الذين أسهموا في وقف الكتب والمكتبات بشكل صريح في مرحلة تالية، إذ أنه مع ازدهار التأليف، ونشاط الحركة العلمية في العالم الإسلامي المعروف في ذلك الوقت، وكثرة الدارسين بدأ الشعور بأهمية توفير الكتب لأكبر عدد من المستفيدين يتعمق في نفوس الحكام والوزراء والعلماء والأثرياء، ووجد هؤلاء في الكتاب وسيلة من وسائل العمل الخيري من منطلق الرغبة في إشاعة العلم والتغلب على مصاعب الحصول على الكتب من أنحاء العالم الإسلامي لطلبة العلم في مدن ومناطق معينة، فأدى ذلك إلى ظهور الوقف الخاص بالكتب والمكتبات.

فمن الناس من يوقف كتبه على المسلمين عامة دون تعيين فتوضع كتبه في خزانة الجامع، ومنهم من يخصص فيقول أوقفتها على المكان الفلاني أو البلدة الفلانية... إلخ، ومنهم من يترك استعمالها حراً، على حين يضع آخرون شروطاً لاستعمالها وإعارتها كما فعل القاضي ابن حيان الذي منع إعارة كتبه خارج المبني... وبعضهم وقف كتبه على أهل العلم كما فعل ابن الخشاب...[٤]

وتنوع الوقف فشمل وقف مكتبات بأكملها، ووقف الكتب على المدارس والمساجد والمشافي والمراصد والربط والخانقاهات، كما كان هناك نوع من الوقف يتمثل في وقف كتب عالم بعد وفاته على أهل العلم أو على ورثته، واهتم واقفوا المكتبات المستقلة أو تلك التي تكون في مدارس أو مساجد بتوفير دخل مادي ثابت لها لصيانتها وترميمها، وتحمل التكاليف المادية للعاملين فيها، وعين بعضهم ريعاً يساعد على نماء المجموعة وازدهارها عبر السنين.

وقد انتشرت خزائن الكتب الوقفية في أرجاء العالم الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري، لدرجة أننا «قلما نجد مدينة تخلو من كتب موقوفة»[٥] وأصبحت هذه المكتبات بما فيها من كتب وقفية قبلة لطلاب العلم تعينهم على التزود بكل جديد وتوفر لهم فرص مواكبة الأفكار والآراء المدونة لمؤلفين من أصقاع العالم الإسلامي، وقد بلغ من انتشارها وتوافرها في الأندلس أن أبا حيان النحوي كان يعيب على مشتري الكتب ويقول: «الله يرزقك عقلاً تعيش به، أنا أي كتاب أردته استعرته من خزائن الأوقاف»[٦].

وللتدليل على ضخامة عدد المكتبات الوقفية وشيوعها نشير إلى أنه كانت في مدينة مرو الشاهجان عشرة خزائن للوقف، وذلك في القرن السابع الهجري، يقول عنها ياقوت الحموي :

لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة منها خزانتان في الجامع إحدهما يقال لها العزيزية، وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني أو عتيق بن أبي بكر، وكان فقاعياً للسلطان سنجر، وكان في أول أمره يبيع الفاكهة والريحان بسوق مرو... وكان فيها اثنا عشر ألف مجلداً أو

ما يقاربها والأخرى يقال لها الكمالية... وبها خزانة شرف الملك المستوفي أبي سعد محمد بن منصور في مدرسته... وخزانة أخرى في المدرسة العميدية، وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين بها، والخزائن الخاتونية في مدرستها، والضميرية في خانكاه هناك، وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثره بغير رهن...[٧]

ويبدو أن كثيراً من الأعمال المشهورة التي كانت في حوزة علماء كبار كانت تستقر بشكل أو بآخر في مكتبات الوقف، فقد كان الخطيب التبريزي المتوفي سنة ٥٠٢ هـ يملك نسخة من التهذيب في اللغة لأبي منصور الأزهري حملها معه من تبريز إلى المعرة، ولم يكن لديه مالٌ كافٍ يستأجر به مركوباً فكان يسير على قدميه حاملاً نسخة التهذيب في مخلاة مما تسبب في نفاد العرق إليها وأثر فيها البلل، ثم إن هذه النسخة استقرت أخيراً في إحدى المكتبات الوقفية في بغداد في القرن السابع الهجري[٨].

وكانت هذه المكتبات بكتبها الوقفية ، إضافة إلى المكتبات الخاصة مثل مكتبات الخلفاء والأمراء والوزراء والعلماء وراء حركة الازدهار الفكري والثقافي التي شهدها العالم الإسلامي على مدى قرون طويلة، فقد اعتمد عليها علماء مشاهير في وضع مصنفاتهم، من مثل ياقوت الحموي الذي يشير إلى استفادته من خزائن كتب مرو الشاهجان حيث يقول: «وأكثر فوائد هذا الكتاب (يقصد معجم البلدان) وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن»[٩].

دور الكتب المستقلة:

واعتماداً على المصادر التي اطلعنا عليها، نجد أن وقف دور الكتب أو خزائن الكتب المستقلة هو أقدم أنواع وقف الكتب والمكتبات عند المسلمين، ومن الطبيعي أن يكون أوائل المسهمين في هذا النوع من الوقف هم الخلفاء والحكام والوزراء والأثرياء نظراً لتوفر المال لديهم، ووجود الحافز نحو المشاركة في عمل خيري عن طريق استغلال جزء من ثرواتهم للصالح العام رغبة في الثواب وأملاً في ترك انطباع حسن لدى مستخدمي هذه المكتبات أثناء حياتهم، وبعد وفاتهم، وقد ظهرت أوائل دور الكتب الوقفية في القرن الرابع الهجري، ومن هذه الدور :